سورة الطارق

مكية، وهي ثماني عشرة آية مع البسملة

هذه السورة مكية، وقد روى البعض أن أبا جهل خاف مرةً عند سقوط نجم ثاقب، فنـــزلت الآيات الثلاث الأولى من هذه السورة. (فتح البيان، وروح المعاني)

ويرى نولدكه وموير أن هذه السورة مما نزل في البداية المبكّرة جدًّا للبعثة. ولكن القسيس "ويري" يقول إن آياتها من الحادية عشرة إلى السابعة عشرة نزلتْ بعد السنة الرابعة من البعثة، لأنها تتحدث عن مؤامرات الكافرين. (تفسير ويري)

لقد قلتُ غيرَ مرّة إن مثل هذا الاستدلال يرجع إلى العداء البحت. إذ ما الحرج لو قلنا إن مؤامرة الكفار في هذه السورة قد ذُكرتْ هنا كنبوءة، حيث إن القرآن مليء بالنبوءات؟

ثم إن هذا الفرق البسيط في تحديد زمن نزول هذه الآيات لا يضرّنا شيئا، لأن القول بأنها نزلت بعد ظهور عداء الكافرين يستلزم أن يعترف هؤلاء المستشرقون أن القرآن قد تنبأ عن هلاكهم في الزمن المبكر جدًّا. ولا يسع "ويري" إنكارُ تحقُّقِ هذه النبوءة.

الترابط:

هذه رابع سورة تتحدث عن نفس الموضوع الجاري من سورة الانفطار ثم الانشقاق ثم البروج، علمًا أن سورة المطففين -كما بينتُ من قبل- تناولت أحد جانبَي الموضوع الذي كان قد بدأ من سورة الانفطار؛ والدليل على دعواي هو أن السورتين التاليتين لسورة المطففين تستهلان بلفظ (السماء)، ولكن المطففين لم تبدأ بلفظ (السماء)، لكونها تسلسلاً لمضمون سورة الانفطار.

باختصار، إن سورة الطارق آخر سورة تتحدث في الموضوع الجاري منذ بضع سور، حيث لم تستهلّ السور التالية لها بكلمة (والسماء)، بل تبدأ سورة الأعلى

بقوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ لتتحدث عن موضوع آخر جديد. وعندي أن سورة الطارق قد جاءت هنا بين السور كبرزخ، حيث يُعرَّج فيها من موضوع إلى آخر.

لقد وردت كلمة (السماء) في مستهلّ هذه السورة والسورِ الأربع قبلها إلا سورة المطففين، وفي كل مرة قد ذُكر مع السماء شيء مختلف، إذ قيل في سورة الانفطار ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، وقيل في سورة الانشقاق ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾، ثم قيل في سورة البروج ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾، والآن قيل هنا ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

والفرق الآخر أن السورة الأولى والثانية منها تتحدثان عن تغيرات ستقع في السماء، أما باقي السور فقد قُدِّمت فيها السماء كشهادة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الطارق: هو: الآتي ليلاً؛ النجمُ الذي يقال له: كوكبُ الصبحِ؛ الضاربُ بالحصى على سبيل التكهُّن. (الأقرب)

التفسير: للطارق ثلاثة مفاهيم كما ذكرنا أعلاه، ولكن السؤال هنا: أتنطبق هذه المفاهيم كلها هنا أم أحدها؟ وليكن معلوما هنا أننا نحن الأحمديين نفسر أحيانًا كلمةً واحدة من القرآن بخمسة أو ستة معان، فتنتاب الناس شبهة بأن هؤلاء يحمّلون الآيةَ فوق ما تحتمل. والحق أنّ هذه الآية من سورة الطارق ومثيلاتها تؤيّد نهجنا. إذا كانت الكلمة تفيد لغةً معاني عديدة، فلا بد من أحد احتماليْن، فإما أن يراد بها معنى واحد أو أكثر من معنى. ثم إذا أُريدَ بها أكثر من معنى، فيمكن أن يراد بها كل تلك المعاني أو بعضها. وإذا أُريدَ بها معنى واحد، فثمة احتمالان؛ أن يكون

هذا المعنى واضحًا كل الوضوح بحيث إن السياق يؤكده، أو لا يكون هذا المعنى واضحا تمامًا، فنحتاج إلى قرينة أخرى لتحديده. ومن أساليب القرآن أنه إذا أراد أن نأخذ بمعنى واحد معين للكلمة أتبعَه بقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾. تكون الكلمة الواحدة تحتمل عدة معاني، ولكن الله تعالى يقول بعدها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾، ثم يذكر المعنى المحدَّد الخاص بذلك السياق. وهذا دليل على أنه إذا خلتْ آيةٌ من جملة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فمن حقنا أن نفسر الكلمة الواحدة بكل المعاني المحتملة الممكنة بأكثر من معنى للكلمة، وإلا فلماذا، يا ترى، يحدد الله معنى كلمة في مكان، ولا يحدده في مكان آخر؟ إنما سببه أن تفسير كلمة واحدة بأكثر من تفسير ليس خلاف مراد القرآن الكريم. نعم، إذا حدَّد الله تعالى معنى كلمة، فلا يحق لنا تركه والأخذ بغيره. فثبت من هنا أن الذين يعترضون على تفسيرنا قائلين لماذا يفسر هؤلاء كلمة واحدة بعدة معان محتملة بحسب اللغة، إنما اعتراضهم راجع إلى قلة الفهم وعدم التدبر في القرآن الكريم.

يقول الله تعالى هنا: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾.. فلولا قوله تعالى هنا ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾، لقال قائل: الطارق هنا بمعنى "الآتي ليلا"، وقال غيره: لا إنه بمعنى الكاهن، ولكن الله تعالى حدَّد معناها بقوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾.. أي ليس عندكم سبيل لمعرفة ما نقصده من الطارق هنا، مع أنها كلمة عربية وكان العرب يعرفون معناها؛ فثبت أن قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ إنما يعني أنه ليس عندكم سبيل لمعرفة المعنى المقصود للطارق في هذا السياق، فلذلك نحن نخبركم أننا نقصد به النجم الثاقب.. أي كوكب الصبح.

وتكمُنُ صلةُ هذه السورة بالسورتين السابقتين في أن الله تعالى قال في سورة الانشقاق ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾.. أي نقدّم كشهادة قمرَ الليلة الثالثة عشرة، ثم قال في سورة البروج ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۞ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾.. مُخْبرًا عن بعثة شخص موعود يأتي بعد ظهور الاثني عشر برجًا، وهكذا أخبر الله تعالى في السورتين أن هذا الموعود سيكون بدرًا. ولكن كلمة (بدر) تثير شبهة؛ ذلك أن لفظ البدر وإن كان يشير إلى أنه قد نقل ضوء الشمس إلى الناس نقلاً كاملا، إلا

أن لفظ البدر ينطوي على مفهوم آخر أيضًا وهو اختفاء الشمس عن الأنظار، وبالتالي فلو كان البدر في النهاية فهذا يعني أن الشمس المحمدية لم تعد توصل ضوءها إلى الدنيا الآن مباشرة، وهذه منقصة وعيب، لأن هذا يعني أننا سنرى النور المحمدي ولكن بواسطة شخص آخر وليس مباشرة؛ مع أن واقع الأمر أن الرسول ﷺ هو النبي الحقيقي لهذه الأمة؛ وكل من يبعثه الله تعالى بعده ﷺ لا بد أن يكون تابعا له ﷺ؛ ومن المستحيل أن يقف أيُّ تابع حاجزًا بين الناس وبين النبي المتبوع ﷺ، لأن هذا يجعل التابع نبيًا أخيرًا مستقلا لأمة المتبوع. ومثاله عيسى عليه السلام الذي تسبب في انكشاف النور الموسوي، ولكنه كان نبيا أخيرا مستقلا أيضًا. ولكن الله تعالى يخبر هنا أن الموعود الذي ننبئ عن ظهوره لن يكون كالسابقين الذين جاءوا في آخر أمة نبيهم إيذانًا بنهايتها. كلا، بل إن لهذا الموعود الذي سيظهر في أمة الإسلام اسمَين: البدر والطارق. ومعلوم أن البدر يشير إلى غروب الشمس وإلى أن ضوءها سيصل إلى الدنيا بواسطته لا مباشرةً. أما الطارق -وهو كوكب الصبح- فإشارة إلى أن الشمس على وشك الطلوع؛ وهذا يعني أن هذا الموعود لن يحجب نورَ الشمس المحمدية، إذ هو بدر من جهة، وطارق من جهة أخرى. إنه بدر بمعنى أنه يستمدّ النورَ من نبوة محمد رسول الله ﷺ ويوصله إلى الدنيا، وإنه طارق بمعنى أن الذين سيكونون على صلة به سيتمكنون من إنشاء الصلة المباشرة برسول الله ﷺ حيث سيرون نور شمسه بأنفسهم. بتعبير آخر إنه لكونه بدرًا سيستمد نور شمس النبوة المحمدية ويوصله إلى الناس، ولكونه طارقًا سيربي أتباعه تربية تمكّنهم من اكتساب النور من محمد رسول الله ﷺ مباشرة.

والعجيب أن هذا الموعود للأمة قد سُمي في الحديث أيضا باسمين: المسيح والمهدي (ابن ماجه: كتاب الفتن، باب خروج المهدي، والترمذي: أبواب الفتن، ما جاء في أن الدجال لا يدخل المدينة). وقد كتب المسيح الموعود عليه السلام أيضًا أن أمري متوقف على اسم المهدي (أيام الصلح، الخزائن الروحانية المجلد ١٤ ص ٣٩٣-٣٩٨)، مع أن تسمية المسيح الموعود أكثرُ شهرةً وتداولاً في جماعتنا. الواقع أن اسم البدر يمثّل عيسى المسيح، واسم الطارق يمثّل المهدي. وكل أولئك الذين بُعثوا من قبل في الأمم

الخالية بصفتهم المسيح لم يكونوا آخرين في أمتهم فحسب، بل كانوا معلنين نهاية عهد نبيهم المشرِّع، حيث انتهت تلك الأمم بمجيئهم، وبدأت أمة جديدة من عند الله تعالى، ودرءًا لهذه الشبهة قد سمى اللهُ موعودَ الأمة الإسلامية مسيحًا من ناحية، ومهديا من ناحية أخرى، وسماه نبيًا من جهة، وتابعا كاملا من أُمته ﷺ من جهة أخرى. فهو البدر لكونه نبيًّا، وهو الطارق لكونه تابعًا كاملا.

باختصار، قد أطلق القرآن الكريم اسمين على هذا الموعود، وقد أشير إلى أحد هذين الاسمين في قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، وقوله تعالى ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾، بينما أُشيرَ إلى الاسم الثاني بكلمة ﴿الطارق﴾ التي فيها إشارة إلى أنه سينشر النور المحمدي في العالم ثانية، بتعبير آخر إنه سيبشّر برقي الإسلام وانكشاف الأنوار المحمدية.

وهكذا قد بين الله تعالى في هذه السور كلتا النبوءتين: النبوءة المتعلقة بعيسى المسيح، المذكورة من قبل في قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾(الانشقاق:١٩)، وفي قوله تعالى ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾(البروج:٣)، أما النبوءة المتعلقة بالمهدي فقد ذُكرت هنا في هذه السورة في كلمة ﴿الطارق﴾.

وهناك لطيفة أخرى وهي أن الله تعالى قد عرّج ثانية في آخر هذه السورة على الزمن الأول للإسلام حيث قال لرسوله ﷺ ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾.. فكما بدأ الموضوع بذكر الرسول ﷺ خَتَمَه أيضًا بذكره ﷺ.

قال الله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.. أي نقدِّم كشهادة السماءَ والطارقَ. والملاحظ هنا أن الله تعالى قدّم شهادة السماء في السورة السابقة أيضا، ولكنه تعالى قال عندها: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، حيث بيّن هنالك أن الإسلام سيمر بمختلف الأدوار، وفي كل عصر سيقوم الله تعالى بتجديده على يد بعض الناس، إلى أن يأتي اليوم الموعود، فيقيم الله تعالى شخصًا يسمَّى نبيًّا، فتُساور القلوبَ شبهة بأن النور النبوي قد انتهى، ودرءًا لهذه الشبهة ذكر الله تعالى وصفًا آخر لهذا المبعوث فقال ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.. أي إذا كان هو نبيًا من جهة، فإنه الطارق من جهة أخرى؛ فكما أن في النظام السماوي قمرًا منيرًا وليلاً مظلمًا، كذلك هذا الموعود يكون بدرًا وطارقًا أيضا. وكأن أحد اسمَيه يشير إلى ختم الشيء، واسمه الآخر يشير

إلى فتحه واستمراره. فبيّن الله تعالى أنه إذا كان ظهور المسيح الموعود سيتسبب في انتشار ضوء الشمس المحمدية بطريق غير مباشر، فإنه سيتسبب في إقامة شريعة محمد ﷺ في الدنيا أيضا. فإلى أن ينال الإسلام الغلبة سيسمّى المسيح الموعود بدرًا يتسبب في انكشاف الفيوض المحمدية الروحانية كواسطة أو مرآة، وحين يصبح الإسلام غالبا سيعمل كالطارق، لأن فتح الإسلام وغلبته وإقامة الشريعة كلها مقدَّر على يد المهدي. إذن، فإلى أن تتم غلبة الإسلام، سيغلب على المسيح الموعود اسم البدر؛ إذ كان المسلمون ضعفاء جدًّا في معركة بدر؛ لا شك أن الفترة البدرية كانت علامة الفتح، ولكنها كانت علامة الضعف أيضا؛ أما اسم النجم الثاقب فإشارة إلى زوال الضعف وبداية الغلبة والرقي.

وبذكر السماء في الموضعيْن - أي في قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وفي قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ - قد بين الله تعالى أن كلا المقامين تابع لنظام السماء؛ أي لوحي الله تعالى. إن المنصب البدري تابع للوحي، كما أن المنصب المهدوي تابع للوحي، وبغير نظام السماء لا يتيسر منصب البدر ولا منصب الطارق، بل كلا المنصبين بحاجة إلى نظام السماء.

وقد أُشيرَ بذكر نظام السماء في الموضعين إلى أن الله تعالى سيظلّ- بعد بعثة المسيح الموعود عليه السلام - يخلق مظاهرَه، فبعضهم يكون مظهرا لمهدويته وبعضهم لمسيحيته، ولكن لا بد من نزول وحي الله عليهم لورود كلمة ﴿السماء﴾ في الموضعين، التي هي إشارة إلى الوحي.

ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٤

شرح الكلمات:

النجم: راجع شرح الكلمات في سورة التكوير لقول الله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَت﴾.

الثاقب: ثقَبه ثَقْبًا: خرَقه بالمِثقَب (الأقرب). وثقَب النجمُ: أضاء. (المنجد)

وفي "الأساس" (للزمخشري): "كوكبٌ ثاقبٌ ودُرِّيٌّ: شديدُ الإضاءة والتلألؤِ، كأنه يثقُب الظلمةَ فينفُذ فيها ويدرَأُها".. أي يدفَعها. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّنتُ من قبل أن الله تعالى قد أشار بوصف هذا الموعود بدرًا إلى أنه سينشر النور المحمدي في العالم رغم شدة الظلمة، وأن جماعته ستكون خادمة للإسلام، وأشار بكلمة ﴿الطارق﴾ أنه يبدّد كل أنواع الظلمات ويزيلها. الحقيقة أن العصر المحمدي هو عصر الجلال، وأن زمن المهدوية يتعلق بالفتوحات، فأخبر الله تعالى بقوله ﴿الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أن مجيئه ستكون بداية لزمن الفتوحات الإسلامية، وأنه سيثقب كل أنواع الظلمات ويبددها.

إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝

شرح الكلمات:

لَمَّا: إن (لَمَّا) لها عدة معانٍ منها (إلا)، حيث ورد: "والثالث من أوجُهها أن تكون حرفَ استثناء، فتدخل على الجملة الاسمية، نحو: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.... قال سيبويه: "أعجبُ الكلماتِ كلمةُ (لَمَّا)، إنْ دخل على الماضي يكون ظرفًا، وإنْ دخل على المضارع يكون حرفًا، وإنْ دخل لا على الماضي، ولا على المضارع، يكون بمعنى (إلا)" (الأقرب).

ويبدو من استعمالات العربية أن (لَمَّا) يفيد معنى (إلا) حتى وإنْ لم يدخل على الاسم، حيث يقال: أَنْشُدُكَ اللهَ لّما فعلتَ.. أي لا أسألك إلا فعْلَك. (الأقرب)

التفسير: لقد فُسّرتْ هذه الآية بمفاهيم مختلفة، أحدها أن الله حافظُ كل إنسان. ورد في القرآن الكريم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ (الأحزاب:٥٣)، وحيث إن النفس تُطلَق على كل شيء، فثبت أن الله تعالى حافظ كل شيء. وقال الله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾(الانفطار:١١-١٢)، وقال الله تعالى ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾(الرعد:١٢).. أي

هناك جماعة من الملائكة يتناوبون بأمر الله على حفظه من أمامه ومن خلفه. وروي في حديث أن النبي ﷺ قال: وُكِّلَ بالمؤمن مئة وستون مَلَكًا يذبّون عنه كما يذبّ عن قصعة العسل الذبابَ (المعجم الكبير للطبراني). إذن، يذكر القرآن والحديث أن الله تعالى رقيب على الإنسان وحافظه، وأن الملائكة يقومون بهذا الواجب.

ولكني أرى أن قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ هنا يعني ذلك النوع الخاص من الناس الذين هم بمنـــزلة النجم الثاقب، أو نُوّابُهم. وهم كثيرون، إذ كان منهم موسى وعيسى ورسولنا ﷺ والمسيح الموعود. ولما كان هؤلاء جماعة كبيرة فقال الله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، أي أنّ كل واحد من هذه الجماعة أو الطائفة عليها حافظٌ ورقيب، وهو الله. قال الله تعالى عن رسوله الكريم ﷺ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٨). وقد أُوحيتْ هذه الآية إلى المسيح الموعود عليه السلام أيضا. (انجام آتهم، الخزائن الروحانية المجلد ١١ ص ٦٠). وقد أوحي كلام مماثل إلى المسيح الناصري عليه السلام حيث قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(آل عمران: ٥٦).. أي يا عيسى، إني سأميتك ميتة طبيعية، وسأكرمك عندي، وأبرئك من افتراء الكافرين، وأجعل أتباعك غالبين على الكافرين إلى يوم القيامة.

وقد صرح المسيح الموعود عليه السلام أن أول نبي وآخر نبي من أي سلسلة نبوة لا يُقتل أبدًا، بل الله تعالى يتولى حمايته، حيث قال عليه السلام: "مع أن قتل المؤمن شهادة، ولكن من سنة الله أن نوعين من رسله لا يُقتلان؛ النوع الأول: هو النبي الذي يأتي في بداية سلسلة نبوة، ومثاله موسى عليه السلام حيث كان أول نبي في السلسلة الموسوية، ومثاله الآخر سيدنا ومولانا ﷺ حيث كان في بداية السلسلة المحمدية. والنوع الثاني: هو النبي والمأمور الرباني الذي يأتي في آخر سلسلة نبوة، ومثاله عيسى عليه السلام الذي جاء في آخر السلسلة الموسوية، ومثاله أنا حيث جئت في آخر السلسلة المحمدية. (تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية المجلد ٢٠ ص ٦٩-٧٠)

فثبت أن قوله تعالى ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ يعني كلّ نفس من هذه الطائفة. لا شك أن (كلّ نفس) يمكن أن يراد به كلّ الناس حيث إن القرآن الكريم

والحديث قد ذكرا حفْظ النفوس كلها من عند الله تعالى، ولكن لا أجد أي صلة بين هذا المفهوم وبين قوله تعالى ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، بينما المعنى الذي أذكرُه فهو منسجم تماما مع هذه الآيات، إذ المراد أن الله تعالى يتولى حفظ الطائفة الذين هم من قبيل ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ ويحميهم من شرور أعدائهم.

وقد ذكر الله تعالى هنا ﴿الثاقب﴾ ليؤكد أن هذا النجم سيثقب عدوَّه ويهلكه، و لن يقدرالعدو على قتله.

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٦ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٧ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٨

شرح الكلمات:

دافق: دفَق الماءُ: انصبَّ بمَرّة. والدافقُ: المنْصَبُّ. (الأقرب)

الصُّلْب: الصُّلْب والصالبُ: عَظْمٌ في الظهر ذو فِقارٍ مِن لَدُنْ الكاهلِ إلى العَجْبِ. (الأقرب)

الترائب: جمعُ ترِيبة، وهي عظام الصدرِ. (الأقرب)

التفسير: لقد أخطأ المفسرون القدامى في تفسير هذه الآية إذ انتقلت أذهانهم إلى معنى خاطئ فقالوا إن معناها أن المنيّ يخرج من عظام الصدر وفقرات الظهر. ولكن الخليفة الأول ﷺ قد فسرها بمعنى لطيف جدا، فقال إن القرآن الكريم يستعمل كلامًا مهذبًا ويتجنب استعمال كلمات مكشوفة مبتذلة، وقد أشار بهذه الكلمات إلى مكان الماء الدافق حيث يقع وسط الصلب والترائب (حقائق الفرقان). وهذا معنى لطيف جدا ويتلاءم مع عظمة القرآن الكريم.

وقد قال البعض المراد من الصُلْب صُلْبُ المرء ومن الترائب ترائبُ المرأة.. أي أن الإنسان يُخلَق من صلب المرء ويرضع من ثدي المرأة. فالصلب هنا صلب الأب،

والترائب ترائب الأم (ابن كثير). وهذا المعنى أكثر معقولية من المعنى السابق الذي ذكره المفسرون، ولا اعتراض عليه من الناحية العلمية والطبية.

إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٩

التفسير: لقد تحدث الله تعالى هنا عن خلق الإنسان، وأوّلُ ما قاله هنا هو أنه خُلق مِن ماءٍ دافق.. أي قد جعل الله تعالى في الإنسان قوة الدفق، حيث خُلق مِن ماءٍ دافق. والأمر الواقع أن كل أعمال الإنسان تصدر نتيجة صفة الدفق فيه.. بمعنى أنه يظل يقفز دائمًا ويرغب في التقدم باستمرار. فكما أن القافز يرتفع مرة وينخفض أخرى، كذلك يمرّ الإنسان بحالات مختلفة، فحينًا يكون في ارتفاع وحينًا في انخفاض؛ وهذا كله دليل على أن فطرته مزودة بكفاءة التقدم، وأن الله تعالى قد فتح أمامه باب الرقيّ على مصراعيه، ولكنه إذا لم ينتفع من هذه الميزة فيه تضرّرَ.

يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝١٠ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١١

شرح الكلمات:

تُبلى: تُكشَف وتُعرَف وتُظهر.

السرائر: جمعُ سريرة، وهي السرّ الذي يُكتَم. سريرةُ الإنسان: ما أسرّه مِن أمره خيرًا، وقيلَ شرًّا. يقال: فلانٌ طيِّبُ السريرة: أي سليمُ القلبِ صافي النية. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ يعني يومئذ يكشف الله تعالى الأمور الخفية، أو يُمتحن الإنسان في سرائره؛ ولو أخذنا هذا المعنى فالآية تتحدث عن المؤمن والكافر كليهما. أما إذا فسرناها بمعنى أن سرائر أصحاب القلوب الصافية سوف تُكشف، فالآية تختص بالمؤمنين. ولو كانت السرائر هنا بمعنى ما يكتمه المرء من أسرار، فالحديث هنا عن الكافرين فقط. وقوله تعالى ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾ دليل على أن السرائر هنا لا تشير إلى أصحاب القلوب الصافية، بل تعني ما

يُكتم من أسرار؛ ولا غرو أن الإنسان يكتم سيئاته دائمًا؛ وعليه فالمراد: يومَ يُكشَف ما ارتكبه الإنسان من سيئات وما كتمه من نوايا شريرة، أو أنه يُمتحن بصددها؛ ومثل هذا الإنسان لن يجد في نفسه قوة ولن يجد نصيرًا.

لقد تحدثت الآيات السابقة عن النجم الثاقب، ومعلوم أنه لا يُثقَب من الأشياء إلا ما يستوجب الإتلاف والهلاك، لأن الأشياء الجيدة لا تُثقَب ولا تُتلَف بضربها بالحجارة مثلا. ثم قال الله تعالى ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.. أي أن الناس سيعارضون هذا النجم الثاقب، ولكن الله تعالى سيبّدد على يده الظلمات، ويفضح الذين يكيدون له سرًّا لإفشال مهمّته، ويكشف شرورهم ونواياهم السيئة، ويدمّرهم حتى لن يجدوا في أنفسهم قوة للنجاة، كما لن يقف أحد لنصرتهم.

مرة أخبرني أحد الإخوة قائلا: كان أبي صديقًا حميمًا للمولوي محمد حسين البطالوي، وكان أبي يأمرني بزيارته كلما حضر إلى مدينة "شِمْله". فجاء البطالوي إلى "شِمْله" مرة، وذهبت للقائه، وبدأت في تدليك رجليه، وفيما أنا في ذلك إذ جاء الحافظ عبد الرحمن مؤلف كتاب الصرف وقال للبطالوي: "حضرة الشيخ، قد حقق الميرزا القادياني تقدّمًا كبيرًا، إذ يدخل الناس في جماعته بكثرة، وبدأت هذه الفتنة تتفاقم يوما فيوما". وبعد حديث طويل قال بعض الحاضرين: لماذا لا يقتله أحد منا؟ فقال البطالوي: "المشكلة أن بعض الناس قد حاولوا ذلك مرارا، ولكنه ينجو في كل مرة". يقول الراوي: فقلتُ في نفسي: لا خبرة لهؤلاء العلماء والشيوخ بهذه الأعمال، أنا سأتولى قتل الميرزا لأنال هذا الثواب، وصممتُ على ذلك في قلبي. وفي اليوم التالي حضر الحافظ عبد الرحمن للقاء البطالوي وقال له: حضرة الشيخ، لقد وجدنا سبيلاً لإلحاق الهزيمة بالقادياني. لقد نشر الميرزا إعلانًا أنه لن يخوض أي مناظرة بعد ذلك لأن الله تعالى قد نهاه عن ذلك، وإعلانه هذا سيجعلنا غالبين عليه. فلننشُرْ إعلانًا لمناظرته، فإذا رضي بالمناظرة قلنا: انظروا، لقد أعلن هذا الرجل أن الله قد نهاه عن المناظرات، ومع ذلك فقد رضي بالمناظرة، فثبت أنّه كذب فيما قال؛ وإذا لم يخرج للمناظرة، فقد هُزم أيضًا، لأننا سنعلن بين القوم أننا تحديناه للمناظرة ولكنه لم يخرج للنضال. ويتابع الراوي قائلا: كان الشيخ

البطالوي مستلقيا فجلس مستويا وقال: حضرةَ الحافظ، لقد جئتَ بحيلة بارعة، وبالعمل بها سنُسقطه في أعين الناس حتمًا. يتابع الراوي: لما سمعتُ حديثهما أيقنتُ منذ تلك اللحظة أن هؤلاء المشايخ كذابون. كانوا يقولون من قبل إنهم حاولوا قتل حضرة الميرزا و لم ينجحوا في ذلك، واليوم قد أجمعوا على خطة تتنافى مع التقوى. لا شك أن قلوبهم قد خلت من التقوى والإيمان. وهذا الحادث هو الذي قد تسبب في هداية هذا الأخ وانضمامه إلى الأحمدية.

فالله تعالى يعلن هنا: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۞ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.. أي أن هؤلاء القوم سيلجأون إلى أنواع الحيل للقضاء على هذا النجم الثاقب، ولكنهم لن يجدوا في أنفسهم قوة، ولن يجدوا نصيرا على ذلك، وكل من يقف لنصرتهم يبوء بالفشل.

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١٢﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

السماء: للسماء معانٍ عديدة في المعاجم منها: الفَلَك؛ ما يحيط بالأرض من الفضاء الواسع ويظهر فوقنا وحولَنا كقُبّة عظيمة، فيها الشمس والقمر وسائر الكواكب؛ كلُّ ما علاك فأظلّك؛ السحابُ؛ المطرُ. (الأقرب)

الرَّجْع: المطرُ بعد المطر. (الأقرب)

الصَّدْع: هو الشَّقُ في شيءٍ صلْبٍ؛ نباتُ الأرض. (الأقرب)

التفسير:. لقد تغيّرَ مفهومُ السماء هنا، كما تغيّرَ من قبل في قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾، وفي قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، إذ تعني السماء هنا الغيوم. وأما ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ فالرجع هو المطر بعد المطر. فالله تعالى يعلن هنا: نقدّم أمامكم شهادة السماء ذات الرجع.. أي ألم تروا إلى الغيوم كيف تمطر على الأرض مطرًا بعد مطر. ولو لم ينـــزل الماء من الغيوم ولو لم تمطر السحب مرة بعد أخرى، لتوقفت الأرض عن نمائها وازدهارها تماما. إن مياه الأمطار هي التي تنمّي الأرض

وتظهر كفاءاتها الخفية. لقد قال الله تعالى من قبل ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾.. أي أنه قادر على تطوير الإنسان ثانية، وهنا يقول: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾.. أي نقدم كشهادة السحبَ التي تمطر مرة بعد أخرى. فكما أن المطر يهطل على الأرض ويحييها مرة بعد أخرى، كذلك يَنـــزل وحي الله وإلهامه إلى الدنيا ويهب أهلَها حياة روحانية مرة بعد أخرى. بضرب مثال السحب قد نبهنا إلى أن الغيوم كما تأتي وتمطر مرة بعد أخرى، ولولا ذلك لهلكت الدنيا، كذلك هي حال الحياة الروحانية، فلو لم يُقِم الله تعالى أناسًا من عنده لإصلاح الدنيا ولم ينـــزل على الأرض ماء الوحي والإلهام لم يحيَ الناس حياة روحانية أبدا.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾.. أي تزعمون أن الله تعالى أنزل الوحي والإلهام، ولكن ليس عند الناس استعداد لقبوله. والواقع أن هذا خطأ منكم. ألا تروْن الأرض كيف تكون جرداء غيرَ قادرة -في الظاهر- على إنبات شيء، ولكنها تكون في الواقع مزوَّدة بكفاءة الإنبات حيث تنشقّ عند هطول مطر السماء عليها وتُخرج أنواع النبات، فيصبح هذا المحال في الظاهر ممكنًا، وتخرُج أنواع الخضرة في مكان لم تكنْ هناك إمكانية ظاهرة لخروجها فيه.

ومن معاني الصدع النباتُ، وعليه فقوله تعالى ﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ يعني ذات النبات، فالله تعالى يبين هنا أن هناك نظاما آخر جاريا في العالم إضافة إلى نظام السماء؛ حيث يهطل المطر من السماء على الأرض من جهة، ومن جهة أخرى تتمتع الأرض بكفاءة إخراج النبات مرة بعد أخرى. وبالمثل تجدون كفاءات الناس وكأنها ميتة، ولكن بعد نزول مطر الوحي والإلهام الإلهي تروْن أن هذه القلوب الميتة تبدأ في إخراج أنواع النبات والخضار. لا شك أن بعض الناس يكونون كأرض قاحلة لا تقدر على الإنبات إطلاقا، ولكن بعد نزول مطر وحي السماء يصدّق كثير من الناس المبعوثَ الإلهي في وقتهم عاجلا أو آجلا.

إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٤﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

قولٌ فَصْلٌ: فصَل الشيءَ: قطَعه وأبانَه. والفَصْلُ: الحقُّ من القول؛ القضاءُ بين الحق والباطل... قولٌ فصلٌ: حقٌّ ليس بباطل. (الأقرب)

الهَزْل: هَزَلَ الرجلُ: صارَ مهزولاً. هزَل فلان في كلامه: مزَح وهَذَى. (الأقرب)

التفسير: المراد من كون القرآن قولاً فصلاً أنه بعد نزوله لن يحول شيء دون هزيمتكم أيها الكافرون، أو المعنى أن هذا القرآن قول فصل يفصل بين الحق والباطل ويتم التمييز بعده بين الكفر والإسلام حتمًا.

أو يعود ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ إلى الشخص الموعود في الزمن الأخير، والمعنى أن من المحال أن يأتي ذلك الموعود ولا تقع في الدنيا التطورات المذكورة سابقا، فهذا أمرٌ قطعيٌ قد فُصِلَ، وما هو بقولٍ هزلٍ ولا لغوٍ.

إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٧﴾

التفسير: لقد أعاد الله تعالى هنا نفس الموضوع الذي بيّنه في السور الأربع الماضية، حيث بين الله فيها أن الإسلام سيحقّق رقيًا عظيما، وسينتشر في العالم كله، وسيظل في زحفه حتى يصل إلى أنحاء العالم، وسوف تهدر جهود الكافرين وتبوء مكائدهم بالفشل. ثم أخبر الله تعالى في تلك السور أنه سيأتي على الإسلام فترة من الانحطاط، ولكنه سيزدهر ثانية ويهلك الكفر. وبعد ذكر هذه الأمور كلها يقول الله الآن ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾.. أي لقد أخبرناكم بتاريخ الإسلام كله سلفًا، وبيّنا لكم كيف يغلب الإسلام أولاً، ثم كيف يضعف، ثم كيف يهيئ الله تعالى بعد ضعفه أسبابَ رقيِّه وغلبة المسلمين، وكيف يجعل هذا الدين غالبا على العالم كله. فهل بوسع أهل مكة أن يكسروا هذه الحلقات العديدة من

هذه السلسلة الطويلة من مستقبل الإسلام؟ وهل ينجحون في نواياهم الشريرة؟ كلا، بل إنه سيزدهر في المستقبل، ثم يتقلص ظله، ثم يصبح غالبا على العالم ثانية، ولكنكم يا أهل مكة تظنون أنكم ستمحونه بمكائدكم! فيا محمد، إذا كان هؤلاء يكيدون كيدهم فاعلم أني أيضا أكيد كيدي.

فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

مَهِّلْ: مهَّله الدَين وأمهلَه: أنظرَه وأجَّله. ومهَّلَ فلانًا وأمهَلَه: رفَق به. (الأقرب)

التفسير: تتضمن هذه الآية إشارة لطيفة رائعة، بيانها أن الله تعالى كان يستطيع أن يقول هنا: فمَهِّل الكافرين رويدا، ولكن انظرْ إلى روعة البيان ولطفه، إذ قال الله تعالى بدلاً من ذلك: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾.. فقوله ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ كان سيؤدي إلى إثارة المشاعر المتباينة في قلوب المؤمنين وقلوب الكفار، إذ يفكر المؤمنون: لا ندري كم ستطول هذه المهلة التي سيُمنَحها الكافرون، بينما يقول الكفار في أنفسهم: لا داعيَ للقلق حاليًا، إذ قد أُعطينا مهلة، ونظرًا إلى هذه المشاعر المتباينة أضاف الله هنا قوله: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾؛ وهكذا طمأنَ المؤمنين أن الكفار لن يُعطَوا مهلة طويلة، بل هي بسيطة؛ كما خيّب بذلك أيَّ أمل عند الكافرين ونبّههم ألا يظنوا أنهم سيُعطَون الآن مهلة طويلة، كلا، بل لقد آنَ الأوان لهلاكهم ودمارهم.

يقال: ساروا سيرًا رُوَيدًا: أي برفقٍ وتُؤَدة (المنجد)، وعليه فقوله تعالى ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ يعني أولاً: أَعْطِهم مهلةً قصيرة، وثانيًا: ارفُقْ بهم في فترة المهلة هذه، لأن موعد عقابهم آتٍ حتمًا، وسيهيئ الله بنفسه عندها أسباب دمارهم.